المحاضرة الأولى: النزعة القبلية في الشعر الجاهلي

يشكل البناء الاجتماعي للمجتمع العربي في العصر الجاهلي مدخلا مهما في كشف مغزى الشعر الجاهلي، الذي كان له دور كبير في التعبير عن تطلعات الحياة الجاهلية، وآمالها، حيث القبلية مثّلت المحور الرئيس في هذه الحياة الصحراوية، والبعد الأعمق في وجدان الشاعر الجاهلي باعتبار أن الشعر العربي نشأ قبل الإسلام في الصحراء فاحتضن الشاعر ظروفها الطبيعية القاسية بين الجذب والحرب، والتي رسمت له نظاما اجتماعيا خاصا لا يعترف بالاستقلالية والشخصية الفردية، إذ كانت **العصبية** قانونا تتوارثه أجيال الجاهليين، لما تؤسسه للفرد من شرعية البقاء، وتحمي هويته الثقافية والتاريخية من الاندثار ضمن تحديات البيئة الصحراوية المفتوحة- مفتوحة جغرافيا من جهة ومفتوحة على الحروب والصراعات من جهة أخرى-.

تعدّ العصبية مظهرا لنزعة الانتماء القبلي في الحياة الجاهلية، وهي تستند بدورها إلى الدم والنسب، ووحدة القبيلة في المصير والغاية؛ فالعصبية في لسان العرب، مادة "عصب": هي «النصرة على ذوي القربى، وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة»[1]

ولقد تجلى مسارها في الشعر، إذ غدا الشاعر الجاهلي اللسان المعبر عن حال القبيلة و تطلعاتها محققا بذلك ذاته وطموحاته عبر هذا الانتماء، فلقد أدرك الشاعر العربي قبل الإسلام المكانة التي كان يحوزها بين أفراد قبيلته[*]، وهذا ما حمله على الالتزام فنيا بالتعبير عن قضايا مجتمعه المختلفة، فكان يبث الحماس في أفراد القبيلة وقت الحرب، بل تراه المصالح لذات البين والناصح المرشد في الصراعات والخلافات الداخلية وقت السلم،

فهو لسان قومه في كل زمان ومكان، وفي كل الأحداث والوقائع، حيث يرى **حسين جمعة** أن الانتماء ظاهرة اجتماعية وفكرية ثم فنية، تأصلت لدى الجاهليين في وجوه كثيرة، وهو حس مرتبط بالقبيلة، جعل الجاهلي – في ذاته الفردية- جزءا منصهرا في كيان أكبر يقال له الذات الجماعية، تنتهي حريته عند حدود مصالحتها ووجودها، وبهذا الوعي يصبح المجموع لدى الشاعر المنتمي مساويا للذات؛ لذا كان ملزما بالدفاع عن قبلته وقيمها...[1].

كما يرى **يوسف خليف** أن "العقد الاجتماعي" بين الشاعر والقبيلة تحول إلى "عقد فني" قائلا: «وكانت النتيجة الفنية لهذا العقد الفني أن أصبح الشاعر معبرا عن مشاعر قبيلته ورغباتها واتجاهاتها الشخصية، وأصبح ضمير الجماعة (نحن) أداة التعبير بدلا من ضمير الفرد (أنا)، وأصبحت ألوانه التي يرسم بها لوحاته الفنية مشتقة من قبيلته لا من نفسه، أو بعبارة أخرى (صناديق أصباغه) مستعارة من قبيلته وليست صادرة عن نفسه، ولم تعد (ريشته) التي يلون بها لوحاته مُلكا له، ولكنها أصبحت ملكا لأفراد قبيلته جميعا، فهو يفتخر بقبيلته، فيذكر امتيازها العنصري، وشرف نسبها وحسبها، وأصالة ماضيها، وكرم نجارها ويشيد بمكانتها بين القبائل وحرصها على اجتناب الذام، وتمسكها بالمثل العليا التي يقدسها مجتمعه: المروءة، والنجدة والشجاعة والكرم والفصاحة، وما إلى ذلك"[2].

إذن قد تتحول العصبية القبلية التي تهيمن على الشخصية الفردية إلى نزعة يشعر معها الإنسان بقوة الانتماء الحقيقي، فتذوب الأنا الشاعرة في الأنا الجماعية استجابة للتحدي البيئي والتاريخي.

يقول **المتَلمَّس الضُّبَعي**[1]:

إلى كُلِّ قَومٍ سُلَّمٌ يُرتَقَــى بِــهِ وَلَيسَ **إِلَينا** في السَلاليمِ مَطلَــعُ.
وَيَهرُبُ مِنّا كُلُّ وَحشٍ وَيَنتَهي إِلى **وَحشِنا** وَحشُ الفَلاةِ وَيَرتَعُ.

وكذلك من أحسن ما ورد في الفخر القومي (القبلي) ما قاله **طرفة** في هذه الأبيات يفتخر بمناقب قومه، وقد ذكر فيها يوم تحلاق اللمم، أي يوم انتصار بكر على تغلب في حرب البسوس، وفيها كان الحارث بن عباد قد أشار على رجال بكر قبل بدء القتال أن يحلقوا رؤوسهم ليكون ذلك علامة لهم يعرف بها بعضهم بعضا:

سَــائِلُوا عنــا الــذي يَعْرِفُنَــا بقُوانــا يــوَم تَحــلاق اللِّمَــمْ.
يوم تُبدِي البيضُ عن أَسْــوُقِهَا و تَلُــفُّ الخيــلُ أَعْــرَاجَ الــنَّعَمْ
أَجدرُ النــاس بــرأس صِــلْدَمٍ حَازِمِ الأمر شجاعٍ في الــوَغَمْ.[2]

إذا لقد شاعت في الشعر الجاهلي هذه الصورة من الذوبان في الذات القبلية، وتحويل "الأنا" إلى "النحن"، وانصبت فعالية الشعر في هذا الاتجاه بتلقائية مدهشة، فقد مثل **الفخر** أعلى درجات البوح بالنزعة القبلية واتصلت العصبية بتمجيد القوة، قوة القبيلة والفخر بها، وهنا يأتي دور الشاعر في تكثيف مشهد القوة وتنويع **مظاهر** الفخر القبلي والمجد المعنوي لأنه لا يرى وجودا لذاته الشاعرة خارج النزعة القبلية.

- مظاهر النزعة القبلية في الشعر الجاهلي:

إن الفخر هو نافذة تطل منها على مجموعة من المثل التي كان الجاهليون يعتزون بها ويحرصون عليها، فهذه المثل أو الفضائل تدخل في باب الفخر، حيث نجد أن في كل مجتمع من المجتمعات يتشكل مجموعة من القيم التي يعتز بها أبناؤه، فكلما مر المجتمع بطور من الأطوار تعرضت قيمته أو بعضها للتغير والتقهقر في سلم الأهمية.[1] ولقد اتسعت مجالات الفخر في الشعر الجاهلي اتساعا كبيرا، فهي متعددة ومتنوعة، وأبرزها:

1- الافتخار بالأنساب:

يمثل الشعور بالانتماء إلى القبيلة قبل الإسلام مصدر فخر واعتزاز، وهو الذي يترك صاحبه يزداد حماسة لوطنه الروحي -أي قبيلته-، إذ يولد الإحساس بالانتماء للجد الواحد إحساسا بالتاريخ المشترك والمصير الواحد لكل أفراد القبيلة، وعلى ذلك نجد الشعراء في قصائدهم يحرصون على ذكر الأنساب[*]، محاولين إثباتها وترسيخها في الأذهان من خلال التذكير في كل مرة بأن أصول قبيلتهم أصول كريمة توارثتها جيلا بعد جيل، فهي ضاربة بجذورها في التاريخ، يقول **الزبرقان بن بدر** متغنيا بنسب قبيلته[2]:

فإنْ أكُ من كعب بن ســـعد فـــإنني رضيتُ بهم من حيٍّ صدق وولدِ.

وإن يكُ من كعب بن يشكر منصبي فإن أبَانـــا عـــامر ذو المجاســـدِ.

لقد صار الشعور بالانتماء هاجساً شعريا عند جلّ شعراء العصر الجاهلي، فتراهم يبحثون دوما عن الهوية القبلية التي تبدأ بإثبات رفعة النسب والتغني به، فهذا **الأخنس بن**

،

شهاب التغلبي يذكرنا برفعة نسبه الذي يمتد إلى قبائل تغلب بنت وائل، وما يحمله معه من مظاهر القوة والإقدام، يقول[1]: (الأبيات على غير ترتيب)

وَنَحنُ أُناسٌ لا حِجــازَ بِأَرضِــنا ... مَعَ الغَيثِ ما نُلقَى وَمَن هُــوَ غالِــبُ
فَوارِسُها مِن تَغلِبَ اِبنَــةَ وائِــلٍ ... حُمــاةٌ كُمــاةٌ لَــيسَ فيهــا أَشــائِبُ
فَلِلَهِ قَــومٌ مِثــل قَــومي سُــوقَةٌ ... إِذا اِجتَمَعَت عِندَ المُلوكِ العَصائِبُ.(*)

ولا يكتفي الشعراء بذكر مظاهر القوة والشجاعة التي تتميز بها عشيرتهم، والتي تحمس الشاعر دوما للتغني بها وتجعله يذوب في هذا الكيان القبلي، بل يرسم لوحات فنية مشتقة من الارتباط الشديد الذي يكنه الشاعر لقومه وهذه الصورة نجدها عند **المقنع الكندي** الذي نجده يقول[2]:

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِــي أَبِــي ... وبَيْنَ بَنِي عَمِّــي لَمُخْتَلِــفٌ جِــدَّا
إِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَــرْتُ لُحُــومَهُمْ ... وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدَا
وإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي ... زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَــعْدَا

فالشاعر يزداد وفاء لأفراد قبيلته وفخرا بانتمائه لهم لأنه يدرك أن رسالته اتجاههم تفرض عليه أن يبني لهم صروحا من المجد، حتى وإن عكفوا على تهديم مجده؛ ذلك أن مجده إنما مستمد من مجدهم، وهنا تظهر الرغبة في الحفاظ على الكيان القبلي الذي ينتمي إليه الأفراد وتأوي إليه الرعية، إذن فالشاعر الجاهلي أخذ على عاتقته العبء الأكبر في تحمل آمال قبيلته وآلامها وعَبْر خطابه الشعري تحمل المسؤولية الأخلاقية عنها حسب قيم النزعة القبيلة.

2- الافتخار بالكرم:

تأتي فضيلة الكرم على رأس القيم السامية التي طالما تغنى بها الشعراء حتى عدت القيمة الأكثر دورانا في القصائد الجاهلية، فقد عبَّر الشعراء عن الكرم كقيمة أخلاقية قبلية تحكم النظام الاجتماعي لتجعله أكثر تماسكا وتلاحما، قناعة منهم بأنه الممثل الحقيقي لصور التكافل الاجتماعي بين العرب، بل هو سبيل المجد والسيادة، يقول **حاتم الطائي** [1]:

ألم تعلمي أنِي إذا الضيف نابني وعزَّ القِري أقري السديف المُسرْهَدا

يقولون لي: أَهْلَكْتَ مَالكَ فاقتصد وما كنتُ لولا مـــا تقولـــونَ ســيّدا

كما يوضح الشاعر **عمر بن الأهتم** أن الوصول إلى المجد والسمو لا يكون إلا بالكرم، حيث يجود الكريم بماله عند اشتداد المحن، إذ يقول[2]:

وإنك لن تنال المجـــد حتـــى تجود بما يَضِينُ به الضـــميُر

بنفسك أو بمالك فـــي أمـــورٍ يهاب ركوبها الورعُ الـــدَّثُورُ.

يظهر من خلال هذه الأبيات أن صفة الكرم تسحب معها السيادة والمجد، خاصة وإن كان الكرم والعطاء من خير الزاد وقت الشدة والجذب، فالرغبة في العطاء عند الممدوح تكون في سعيه المتواصل للعطاء بالنفس والمال في كل زمان ومكان، وفي هذه الحالة تُكسب فضيلة الكرم صاحبها خلودا حتى بعد مماته، إذ الكريم يخلد ذكرى عطرة يفوح شذاها على مدى الأيام والدهور، ويبرز الشاعر **حاتم الطائي** هذه القيمة السامية، إذ يرى الكرم فضيلة يتبعها حسن الثناء، والبخل رذيلة يتبعها سوء الثناء قائلا[3]:

إنَّ البخيـــلَ إذا مـــات يتبعـــه سُوءُ الثّناءِ ويحوي الوارِثُ الإبِلاَ.

فاصدقْ حديثَكَ إن المرء يتبعهُ ما كان يَبني إذا ما نَعْشُهُ حُمِـــلَ.

إذن فإن المدح بالكرم له أثر كبير في نشر فضيلة الجود، والعطاء، وتنمية القيم الاجتماعية السامية في النفوس، حيث أن الشعر بوعيه بمكارم الأخلاق قد استطاع أن يقدم

لنا النموذج الإنساني الفاضل فإلتحم الشعر مع التجربة في إطار الرؤية تلاحما جعل منه بنية فنية مؤثرة[1].

3- الافتخار بالشجاعة:

إنَّ فضيلة الشجاعة بما تحمله من دلالات القوة والصبر والمروءة والإقدام من أهم القيم الاجتماعية التي عمل الشعر العربي على نشرها، لكون"مجتمع الجاهليين مجتمعا صحراويا تحكمه شريعة القوة، فالقوي وحده له البقاء والضعيف له الفناء، فهو الذي يستطيع حماية ماله وعرضه، والدفاع عما يملك، إذ القوة هي التي تحمي، ولا قوة تجدي إلا بالشجاعة، أضف إلى ذلك أن المجتمع الجاهلي لم يعرف الوحدة أو الحكومة الواحدة التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات..."[2]

لقد قدم لنا الشعراء نماذج حية لفضيلة الشجاعة تتجسد فيها أسمى معاني الفخر القبلي الممزوج بالحماسة والإقدام، وينقل لنا **عنترة بن شداد** مشهدا بطوليا رائعا بقوله[3]:

أَحِنُّ إِلى ضَربِ السُيوفِ القَواضِبِ وَأَصبو إِلى طَعنِ الرِماحِ اللَواعِبِ

وَأَشتاقُ كاساتِ المَنونِ إِذا صَفَتْ وَدارَتْ عَلى رَأسي سِهامُ المَصائِبِ

في هذه الأبيات تظهر شجاعة عنترة وفروسيته، فهو لا يخوض غمار المعركة فقط، بل يحن ويشتاق إلى ضرب السيوف واشتباك الرماح إذا ما دارت المعركة وارتفع سواد النقع، فشعر عنترة يبعث الحماسة في نفوس الأبطال، ويستنهض الهمم لدى الشجعان كما يقرّ الشاعر **قيس بن الخطيم**، بأن استجابة قومه إلى نداء الواجب يفرضه الانتماء القبلي الذي يلزم كل فرد بضرورة التضحية حفاظا على ذلك الكيان (القبيلة)، وينقل لنا بطولة جماعية خلدَّت لقومه أياما مشهورة في البسالة والبطولة قائلا[4]:

رجال متى ما يُدعوا إلى الموت يُرقِلُوا إليه كإرقال الجمال المصاعب

إذا فزعوا مدُّوا إلـــى الليـــل صـــارخاً كموجِ الأُتـــيِّ المزبَـــدِ المتراكـــب
ولما هبطنـــا الحـــرثَ قـــال أميرنـــا حرامٌ علينا الخمرَ ما لـــم نُضَـــاربِ
فســـــامحه منَّـــــا رجـــــال أعـــــزَّةٌ فما بَرَحُوا حتـــى أُحِلّـــت لشـــاربِ

وهنا تظهر تبرز الشجاعة تجسيما للوعي الجماعي، بحيث تتقدم المصلحة العليا للقبيلة على مصالح الفرد الذي يفقد استقلاله الذاتي في سبيل الوجود الجماعي لأفراد القبيلة، تأمل كيف تُحضَر الخمر باعتبارها خصوصية فردية ثم يمنع أفراد القبيلة من شربها تحريما حتى تسترد القبيلة المفقودة، وبذلك تحجب اللذة الفردية مؤقتا في سبيل الوصول إلى اللذة الجماعية التي لن تتحقق إلا عن طريق الأخذ بالثأر ورفع قيمة القبيلة من جديد.

4- الافتخار بالوفاء:

إن الحياة في البادية حياة فطرة وصفاء، وإباء وشرف، لذا برز الوفاء كواحد من الفضائل السامية التي لا يتحلى بها إلا كل ذي نفس عالية، وهمة رفيعة فألحقها الشعراء بقبائلهم على سبيل الفخر وصناعة المجد، يقول أحد الباحثين: «فالبدوي كان يتغنى بترفعه عن العار وبعده عن الفحشاء، وبتواضعه، وحيائه وعفوه عند المقدرة، ويتغنى بشجاعته وصلابته في طلب الثأر، ولما كانت الحياة لا تعرف الاستقرار، بل كانت سلسلة من التنقل والارتحال كان **الوعد الصادق** سُنة المجتمع، وكان **الوفاء** من أقدس القدسيات والعذر من أقبح الأمور، لذلك كان الوفاء بابا واسعا من أبواب الفخر لديهم»[1].

وفي ذلك يقول **الأعشى:**

وإن أمرؤ أسدى إليك أمانة فأوفِ بها، إن متى سميت وافيا

مما تقدم يمكن القول بأن النزعة القبيلة ظهرت بوضوح في الشعر العربي قبل الإسلام، فلقد أخذ الشاعر على عاتقه العبء الأكبر في تحمل آمال قبيلته وآلامها، وعبر الكلمة/ الشعر تحمل المسؤولية في السلم والحرب، محاولا ملء شقوق الحياة الجاهلية التي أحدثها الجذب والحرب، لذا تجلت الذات الشاعرة كفادية لروح الجماعة وحاضنة لها.